وسادة تحولت الى طفل . وما هو الوطن ؟ وطن الام طفلها ووطن الطفل أمه . « والفلسطينيون باعوا اراضيهم وهاجروا » — هكذا يقول الاصدقاء والاعداء على السواء . الموت ليس استشهادا حين يكون بالمجان . ودير ياسين لم تكن دعاية عربية كما يقول البعض الان . ان تطلب من شعب أعزل أن يموت ليس تحديدا صحيحا لمفهوم الوطن . ليست هذه حربا ولا كفاحا . هذه مجزرة . والذين يقولون الان ان الفلسطينيين باعوا وطنهم كانوا يعتبرون البقاء في الوطن خيانة . وكانوا يعتبرون الحرب نزهة والرحيل رحلة .

وليلتها ، لم تفهم شيئا ، سألت أباك ، فنهاك عن السؤال لانك صغير . وضعوك في قرية مجاورة . وذهبوا لتحرير القرية . مجموعة من الفلاحين المسلحين الذين لا يفهمون في السياسة والحرب ، أخذوا بنادقهم وفؤوسهم ، وراحوا يذودون عن قهوتهم التي لم تبرد وعن عجينهم الذي لم يخمر . مات منهم من مات ، وانتصروا . وجدوا شاي أعدائهم ساخنا وطعامهم جاهزا . رقصوا وغنوا وذهبوا الى القرى المجاورة ليأخذوا زوجاتهم واطفالهم . وليكملوا الحصاد . كانت البيادر مليئة بالغلال . وحين عادوا ، كانت القرية قد سلمت الى العدو . القرية أطلال والغلال رماد . لقد أحرقوها ونسفوها . وأستاذ التاريخ ينبئك بأنهم لم يطردوا أحدا . وفي جنوب لبنان تصبح لاجئا تأكل من وكالة الغوث ، وتنتظر العودة . وفي جنوب لبنان تعرف ، للمرة الاولى ، ما هو الوطن . هو هذا الشيء الضائع . هو هذه العودة المنتظرة . وحين تعود بعد عام او عامين الى ذلك الشيء الضائع تكتشف أنك أصبحت ضائعا .

لا تخبر أحدا أنك كنت في لبنان .

أين كنت اذن .

في مضارب البدو شمال فلسطين .

بعد قليل ، تصبح كلمة فلسطين ممنوعة . اسمها اسرائيل الذي حمله موسى بعدما شق البحر بعصاه .

— وماذا لو قلت اني جئت من لبنان .

— لانك عدت متسللا والدنيا تغيرت . لن تحصل على بطاقة هوية . واذا جاء البوليس الى البلد وعرف قصتنا فسيأخذنا الى الحدود ويرمينا . وستعرف بعد شهور أن آلاف المتسللين قد طردت بهذه الطريقة . تأتي الشاحنات الى ساحة القرية ، وينتشر البوليس بحثا عن البضائع المهربة . البضائع المهربة هي انت وأنا وهو وهي . كل من فر من الموت وعاد . يملأون الشاحنات ويعصبون العيون ، وفي الليل تجد نفسك في منطقة لا جهات لها ، لان الظلام بلا جهات . والقمر لا يخيف الاطفال . من بين الذين طردوهم زوج خالتك الذي لم تعد جثته ، ولعله بدون جثة . لا تعرف قاتله : الجيش ، أم قطاع الطرق ، أم الذئاب . في كل أسبوع جنازة في القرية . الفلاحون يعثرون على جثة هنا وجثة هناك من هؤلاء المتسللين الذين أكلتهم البراري والبرد والرصاص . وأستاذ التاريخ يقول لك ان اليهود لن يطردوا احدا ... وحين تسأله : كيف تكون اسرائيل يهودية كما تكون انجلترا انجليزية دون أن يطردوا العرب ، ينهاك عن الاسئلة ويقول لك : التاريخ تاريخ ، والسياسة سياسة . وعلى بعد خمس دقائق من هذه القرية ، يخرج شارع من عكا الى صفد . هذا الشارع ، بالنسبة اليك ، ليس طريقا ولكنه حدود تفصل أرض غربتك ولجوئك عن أرض وطنك . الجانب الجنوبي من الشارع أرض أبيك وجدك يستثمرها مهاجرون جاءوا من اليمن . في اللحظة التي وصلوا فيها الى أرضك حددوا مصيرهم ومصير أبنائهم . وفي الوقت ذاته حددوا مصيرك . في اللحظة التي صاروا فيها مواطنين صرت أنت لاجئا . اذا وطأت قدماك هذه الارض — أرضك ساقوك